

الجزائر ميدان للدراسات السوسولوجية المعمّقة في العقود الأخيرة من ق14هـ

Algeria is a field of in-depth sociological studies in the last decades of the 14th century

ط. د: عمر قريعة¹،

أ. د: وهيبة الجوزي²

¹ جامعة: مولود معمري تيزي وزو (الجزائر)،

krea.omar@gmail.com

² جامعة: مولود معمري تيزي وزو (الجزائر)،

hibaeldjouzi@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/12/13 تاريخ القبول: 2023/02/28 تاريخ النشر: 2023/06/30

الملخص:

في بحثنا هذا، سنركز على أهمّ الإسهامات التي قدّمها أعلام و باحثون جزائريون و أجانب في العقود الأخيرة من القرن 14هـ، حتى ثمانينات القرن 20م، و على رأسهم المفكر "مالك بن نبي" و الفرنسي "بيير بورديو" و "أحمد مهيّ" و "علي الكنز" و "سعيد شيخي" و "جمال غريد" و آخرون. حيث ساهمت مجهوداتهم في إحداث التّغيير و تقديم الفهم و التّفسير للعديد من القضايا الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية من أجل اعتماد الأساليب النّاجعة لنهضة المجتمع وتحقيق التّنمية.

الكلمات المفتاحية: البناء الفكري: التّميّز الثقافي: الفكر السوسولوجي: المثاقفة

Abstract:

In our research, we will focus on the most important contributions made by Algerian and foreign scholars and researchers in the last decades of the 14th century, until the 1980s, led by the thinker Malik Ben Nabi, The Frenchman Pierre Bordeaux, Ahmed Mhenni, Ali Al-Kenz, Said Shekhi, Jamal Grid and others. Their efforts have contributed to bringing about change and providing understanding and interpretation of many social, economic and political issues in order to adopt effective methods for the renaissance of society and development.

Keywords: Intellectual construction; Cultural excellence; Sociological thought; Acculturation.

مقدمة:

مما لا شكّ فيه أنّ فترة تواجد العثمانيين في الجزائر. كان العصر الذهبي للإنتاج الفكري و التميّز الثقافي، كما تؤكّده الدّراسات المسحية. فقد برز الجزائريون خاصّة في مجال الفلسفة و العلوم الشرعية بمختلف تفرّعاتها، حيث لم تكن العلوم الانسانية و الاجتماعية مستقلّة عن الفلسفة آنذاك. كما شملت مختلف جوانب الحياة و التّخصّصات. ممّا جعل أنماط الحياة ترقى في سُلّم درجات الحضارة و التّحضّر، وتحافظ على التّوازن الاجتماعي في مختلف أبنيتها المتساندة و المتكاملة وظيفياً، و تفتكّ الرّيادة و تأخذ المكانة المرموقة أمام المجتمعات الأخرى.

غير أنّ دخول الاحتلال الفرنسي إلى الجزائر قد هدّم بكل وحشية تلك المنارات الفكرية خلال قرن من تواجده باتّباعه سياسة "الأرض المحروقة" في كل المجالات منذ الوهلة الأولى، و أهلك الحرث و النّسل، فلم تسلم منه مراكز الإشعاع العلمي و لا أعلامها، و دمر كل صرح مادّي أو أدبي له صلة بالموروث الحضاري، قصّد إحكام السّيطرة و فرض "الانصهار الثقافي" و "الاندماج الاجتماعي" حسب زعمه.

لكن إرادة الشّعوب الحرة لا تُقهر، و ترفض الخضوع و الاستسلام، فقد برزت جمعية علماء المسلمين الجزائريين بأعلامها الأبطال، و أحدثوا نهضة فكرية متميّزة بعد ما كادت تزيغ القلوب و الأبصار في تلك الظّلّمات التي يعلّو بعضها فوق بعض، و فاجأوا العدو

بشهاب تحرق تَدْنيسَه و تُحيي في الجزائريين كل خصائصهم الثقافية، و هوياتهم الوطنية، و إعادة بناء قواعد البناء الفكري المُستمد من مقومات الدين الإسلامي بكل اعتزاز و تضحية.

كما برز "مالك بن نبي" نجماً يتألأؤ في أفق الإبداع الفكريو هو يحلل البناء الفكريو العقل الجمعي للمجتمع الجزائري، و يحدّد قواعد التّهضة الفكرية، و يُرسي القواعد الأساسية لبناء الحضارة في تلك اللحظات التي ظهرت فيها إرهابات الثورة التحريرية. و تواصل العطاء الفكري من خلال ثلّة من الباحثين الجزائريين غداة الاستقلال في مجال علم الاجتماع. حيث صار المجتمع الجزائري ميداناً للدراسات و الأبحاث السّوسولوجية بمختلف فروعها حتّى من الأجانب، و استمرّت و ازدادت تعمّقاً حتى نهاية القرن 14هـ، و التي تزامنت مع التّحوّلات السّياسية و الاقتصادية في الجزائر.

1. الإشكالية

لقد عمد الاستعمار إلى تدمير كل البنى الفكرية الجزائرية من أجل إحكام السيطرة و إجبار الجزائريين على الاندماج منذ دخوله أرض الوطن من خلال سياسة الأرض المحروقة و كل الأساليب الوحشية التي جنّد لها عتاده و عُدّته العسكرية بالتّوازي مع القوى التّاعمة المُسخّرة لتلك الغاية، و التي كانت تزعم أنها تحمل مشروع الحضارة و التّخضّر للشّعب الجزائري. لكنّه تفاجأ بعد قرن من الزّمن بأولئك الأبطال، أعضاء جمعية علماء المسلمين، تبدّد أحلامه و تفشل مشروعه، حيث أعادت ترسيخ كل معالم المقومات الوطنية، و ربط حاضر الجزائريين بماضيهم عبر انتمائهم الاجتماعي بكل خصائصه و سماته الثقافية، و أكّدوا على استحالة انصهارهم في الثقافة الدّخيلة من جهة، و على حتمية المقاومة و الدّفاع عن هذا الانتماء، و الاستعداد التّام للتضحية بالغالي و النفيس في سبيل ذلك دون أيّ شرط أو تردّد من جهة أخرى.

كما سطع فكر مالك بن نبي نوراً يضع أسس صناعة مشروع مجتمع، و يُرسي قواعد بناء الحضارة، و يحدّد أساليب إحداث التّغيير في سبيل تحقيق الحداثة و استثمار مخرجاتها في

— الجزائر ميدان للدراسات السوسولوجية المعمّقة في العقود الأخيرة من ق14هـ

التّسمية، لضمان حقوق الأفراد و الجماعات و الانطلاق في رحلة الإبداع الفكري و التّجديد، و ضبط أنماط التّعامل و الانفتاح على الآخر.

و سرعانما تحوّلت البيئة الاجتماعية الجزائرية إلى ميدان للأبحاث و الدّراسات الاجتماعية لعلماء الاجتماع الأجانب، و استمرّت الانتاج المعرفي بعد الاستقلال مع ثلّة من النّخبة الجزائرية من خلال فهم و تفسير و تحديد عوامل النّجاح للسياسات الاقتصادية المعتمدة من طرف الدّولة، و طرح جملة البدائل لدعم و دفع عجلة التّقدّم و الإزدهار للمجتمع الجزائري.

و ممّا سبق، نطرح التّساؤلات التّالية:

1- هل كانت لهذه الأبحاث و الدّراسات السّوسولوجية الجزائرية و الأجنبيّة إسهامات

في ميدان العلوم الاجتماعية، و أثار في الأبنية الفكرية الجزائرية؟

2- هل استطاعت هذه الإسهامات أن ترسم معالم الحداثة من خلال مختلف المشاريع

الاقتصادية و الاجتماعية و تحقيق التّنمية و إحداث القطيعة مع حياة البؤس و

الشّقاء عشية استقلال الجزائر و استرجاع الحرّية و السّيادة الوطنية؟

2. الإسهامات و الدّراسات

1.2 مالك بن نبي¹:

لقد كان "مالك بن نبي" شخصية فذّة دخلت التّاريخ من بابه الواسع، وعرفت كيف تربط و تنغم بين العناصر الحيوية في الحياة و المتمثلة في (التّراب، الإنسان، الثقافة) و تمزج هذه العناصر بالثقافة ليحدّد بذلك مفهومه للحضارة. حيث اتّخذها منطلقا لتحليل و تشخيص واقع الأُمّة واقترح الحلول للمعالجة مشكلاتها و العمل على نهضتها.و ذلك بهدف التّصدّي

¹مالك بن نبي، عبد؟ لصبو؟ شاه . (2000). مشكلة؟ لثقافة، بد؟؟ طبعة، ??? لفكر،؟ مشق، سو؟ يا

لخداعة ما يسمى بالعمولة الثقافية التي أدرك خطورتها كونه سبق جيله، لأنّها في الحقيقة ليست إلا صورة للاحتواء والغزو الثقافي بشكل جديد.

تأثر "مالك بن نبي" بفكر "ابن باديس"، حيث اعتبر فيما بعد حركة الامام "بن باديس" أنّها "بداية معجزة البعث" في الجزائر، فكلاهما يتخذ الثقافة والفكر أداة للإصلاح والتغيير، وقد تفتنت الإدارة الاستعمارية إلى خطورة فكر "مالك بن نبي" المتشبع بالثقافة الإسلامية على تواجدها واستقرارها، حيث اعتبرت أنّ الشرور الفكرية أكثر إزعاجاً وأخطر من الشرور المادية التي تدعم أشكال الرفض للاستعمار ومقاومته.

قدّم توصيفا للخروج من الأزمة من خلال دراساته لجهود التنمية الاجتماعية والاقتصادية من زاوية الفعالية التي تتناول بناء الإنسان في إطار ثقافة تستجيب لمعطياته وأصالته.

لقد استطاع "مالك بن نبي" أن يبلور نظرية في الثقافة، وظل يلفت النظر والاهتمام لنظريته تلك، وذلك منذ أول كتاب له تحدث فيه عن الثقافة، وهو كتاب "شروط النهضة" الصادر باللغة الفرنسية في باريس عام 1949م، إلى كتابه الذي خصّصه لهذه القضية وهو كتاب "مشكلة الثقافة" الصادر باللغة العربية في القاهرة عام 1959م، وهكذا في الحديث عنها من خلال المحاضرات التي ألقاها في القاهرة ودمشق وطرابلس، وفي الجزائر بعد الاستقلال. ولقد عالج مشكلة الثقافة من ناحيتين هما: "التحليل النفسي" و "التركيب النفسي" للثقافة.

تقوم نظرية المعرفة لدى "مالك" ذات البعد الفلسفي والحضاري، من خلال الاجابة عن المشكلات التالية:

- طبيعة المعرفة الانسانية - مصادر المعرفة - حدود المعرفة وامكاناتها.

يعتمد مالك على مفهوم "النّافعية" بدل النّفعية، من خلال صياغة "منظومة الرشد" التي تعنى بنقاط ثلاث:

- ذاتية إتباع الأسباب - حرية الفعل والفكر - سداد المسلك

التربية المستهدفة عند "مالك" تخرج عن الأطر المعهودة، وإن كانت المدرسة والتعليم جزءا منها. إنّها تربية نوعية تتعلق بالإنسان، "إنسان بعد الحضارة"، وبوسطه الثقافي والاجتماعي، فعن طريق التربية يرتقي الإنسان من حالة "الفرد" المرتبط بالنوع الإنساني إلى حالة "الشخص" الذي يرتبط بالجماعة وبالإنسانية برمته ليساهم من ثمّ في تطويرها

— الجزائر ميدان للدراسات السوسولوجية المعمّقة في العقود الأخيرة من ق14هـ

وتحضّرها. فهي تجمع بين الفرد و المجتمع ، و هي نظرة و سطية و ليست متطرّفة، و هي تهدف الى تركيب عناصر ثقافة المجتمع في بنية شخصية الفرد، كما أنّها تستهدف:

- التربية الأخلاقية - التربية الجمالية - التربية الإنمائية - التربية المدنية - التربية الفنية والمهنية

حسب "مالك" فإنّ المجتمعات العربية تواجه تحدّيين هما: التحدّي "الداخلي" الذي يتمثل في ضرورة البناء من الداخل، و تحدّي "خارجي" يتمثل في التكيّف مع التّطورات الخارجية، كما أنّ أسباب تخلفها تعود إلى:

- 1- الحالة النفسية التي يوجد عليها الأفراد والمجتمع العربي
- 2- الخلل الموجود في العوالم الثلاث (الأشياء ، الأشخاص ، الأفكار)
- 3- القيم الاجتماعية السائدة

2.2. بيبورديو¹:

يعتبر المفكر الفرنسي الراحل "بيبورديو" (1930-2002) من المفكرين البارزين في السّاحة الفكرية الفرنسية و العالمية المعاصرة. من مؤلفاته نذكر: - سوسولوجيا الجزائر (1961)، - الجزائريون (1962)، - العمل والعمال في الجزائر (1963)، - نزع الجذور، أزمة الفلاحة التقليدية في الجزائر (1964)، - الطلاب وتعليمهم (1964)، الورثة، الطلاب والثقافة (1964)، - حبّ الفنّ، المتاحف وجمهورها (1966)، - إعادة الإنتاج: في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم (1970)، - مختصر نظرية الممارسة (1972)، - السيطرة الذكورية (2002) وغيرها من الكتب الكثيرة التي تشكل في مجموعها إرثا نظريا وتطبيقيا مهمّا تركه "بورديو" خلفه للسّاحة الفكرية الإنسانية.

كما نرى من عناوين مؤلّفات "بورديو"، فإنّ فضاء الجزائر يمثل لعمله الفكري ركيزة أساسية. و بالفعل، لقد تمكّن هذا المفكر و عالم الإثنوغرافيا وعلم الاجتماع، الذي أجرى

¹ بيا، بو، يو. ؟ جو؟ كلو؟ ، با؟ سونس. (1970). ؟؟؟؟ لإيتا ؟ ؟ سبيل نظرية عامة لنسق؟ لتعليم. تر؟ ماهر ترش؟ لطبعة؟ لأ؟ ؟؟ نظمة؟ لعربية للتر؟. ؟؟ ؟.

أبحاثه الإثنوغرافية الأنثروبولوجية المتميزة في جزء من المنطقة الأمازيغية "القبائل الكبرى" بالجزائر أثناء الحقبة الاستعمارية الفرنسية و بعدها، من إدخال تعديلات وتغييرات حاسمة على مفاهيم الحقل السوسولوجي والإثنوغرافي وجهازيهما النظريين.

من هذا الفضاء استخلص "بيير بورديو" عدّة مفاهيم ونظريات متميزة منها "الهابتوس" و"العنف الرمزي" و"الرأسمال الرمزي"، و"الحقول الاجتماعية" و"الانعكاسية"، ومن ثمّ سحب هذه المفاهيم إلى منطقة النقاش الفكري في الغرب، لتصويب النظريات الفلسفية البنيوية في الفكر الفرنسي والغربي أيضا.

كما تأكد أنّ تجربته الثقافية الميدانية في الجزائر، قد لعبت دوراً بارزاً في تزويده بمنظورات جديدة غير معتادة في فضاء تقاليد التيارات الفكرية الفرنسية الأوروبية. و في هذا الصدد توضّح الباحثة "بريجيت فولر" في كتابها "بيير بورديو والنظرية الثقافية"، أن "إدراك أعمال بورديو حول الفن والاستقبال الثقافي ممكن فقط إذا قمنا بالتحليل المقارن الذي تتكئ عليه كل أعماله. إن طفولته في المنطقة الفلاحية بمقاطعة "سبييرن" في فرنسا، وكذلك الزمن الذي قضاه كمتخصص في الأنثروبولوجيا في منطقة القبائل بالجزائر، قد شكلت تحليله لعمليات الانتقال من الأشكال ما قبل الرأسمالية إلى الأشكال الرأسمالية وأنماط تمايزات سيطرة الحداثة"

وتضيف "بريجيت فولر" قائلة: "إنّ بورديو في دراساته الجزائرية يبيّن الشروط القبلية التاريخية الضرورية للحقول الثقافية المتخصصة والمستقلة". وتعني هذه الدراسة أن أعمال "بورديو" المكرسة للجزائر قد أبرزت مجالا ومنطلقا فكريين جديدين بعيدين عن المادية الميكانيكية وعن المادية التاريخية المغرقة في التفسير المادي أحاديّ البعد. وهكذا تصنّف هذه الدراسة كتابات "بورديو" على أنها تقف خارج "التقليد الاستشراقي لمكسيم رودنسون"، ومن هنا يمكن القول أنّ الإنجازات التي حققها "بورديو" قد ساهمت في

— الجزائر ميدان للدراسات السوسولوجية المعمّقة في العقود الأخيرة من ق14 هـ

نقد مواقف التمركز الأوروبي الغربي في مجالات علم الاجتماع، والأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا.

"بورديو" قد عالج في مؤلفاته قضية المرأة في المجتمع الأمازيغي الجزائري على نحو مختلف عن المعالجات التي كرستها الأكاديميات الأوروبية الغربية. و بهذا الخصوص نجد "بيير بورديو" يحتاج أنّه "رغم أنّ موقع النساء في داخل قبيلة الشاوية (منطقة الأوراس) كان موقع التابعة على نحو متطرف، غير أنّهنّ يمتلكن تأثيراً مشتقاً من تضامهن الرائع". و حين يناقش "بورديو" مسألة الحجاب نراه يصرح: "إنّ الذي فرض الحجاب، والعزل على النساء داخل المنزل، لا يعود إلى الأعراف التقليدية، و إنّما يعود إلى الممارسات الحضرية الجديدة والزحزحة الثقافية".

مما تقدّم يتضح لنا أن "بورديو" يلقي باللوم جزئياً على علاقات الاستعمار التي همّشت المرأة في هذا المجتمع.

مفهوم "الرأسمال الرّمزي" الذي ابتكره وكرّسه "بيير بورديو" في كتاباته عن الحياة الاجتماعية والثقافية الجزائرية، وأصبح فيما بعد جزءاً أساسياً في القاموس النقدي و الفكري و الثقافي لديه، و لدى عدد كبير من الدّارسين و النّقاد الغربيين و العرب، أمثال الدّكتور "محمد أركون".

فالجزائريون يمتلكون إحساساً صارماً بالشّرف، و الشّهرة و الكرامة، وهذه العناصر منظمّة بواسطة التّقسيم الجنسي للعمل. "إنّ الشّرف، و ليس تراكم المال أو الرأسمال، هو الذي يدفع بهم و يحركهم"، إنّ هذا الاستنتاج نجد صداه في كتابات "بورديو": "إنّ إحدى خصائص المجتمع الجزائري تبدو في أنّ البنية الثقافية الفوقية و عنصر الإحساس بالشّرف و الكرامة جزء منها هي التي تحرّك التّاريخ داخل هذا المجتمع".

في دراسته الشهيرة التي تحمل عنوان "المنزل القبائلي أو العالم معكوساً" يلاحظ "بورديو" أنّ النقص الذي كان يعاني منه المجتمع الجزائري بشأن التحكم في الطبيعة، قد تمّ تعويضه بالتنظيم الاجتماعي، كما أبرز أنّ المجتمع القبائلي الجزائري يتميز "بالتنظيم الديمقراطي" وبخاصية "الشرف الاجتماعي". ويسمّي هذا الأخير نمطا من أنماط الرأسمال الرمزي. كما أنّ "الشرف الاجتماعي" في المجتمع القبائلي الجزائري يأخذ مكان "تراكم الرأسمال الاقتصادي" كما هو في نمط الإنتاج الرأسمالي، و علاقات الإنتاج الرأسمالية في المجتمعات الحديثة والمعاصرة.

و هكذا نفهم أنّ "بورديو" يلجأ إلى منظور نظري مركّب من "البنية التحتية" و"البنية الفوقية" لتفسير تاريخية ومحركات المجتمع القبائلي الجزائري، و يُعتبر هذا بمثابة قلب للنظرية الماركسية التقليدية التي تعطي الأولوية للبنية التحتية لتفسير تاريخ أيّ مجتمع، بغضّ النظر عن خصائصه المختلفة و فرادته التي تتطلّب وجهة نظر نظرية متطابقة معه. و بهذا الصّدّ ينبغي التّوضيح أنّ مصطلح "الشرف الاجتماعي" عند "بيير بورديو" لا يعني المواقف والممارسات الأخلاقية فقط، و إنّما يعني كذلك المواقف الثقافية وعلاقات العمل وعلاقات الإنتاج في مجتمع جزائري يختلف كلياً عن بنية منطق المجتمعات الرأسمالية الغربية و أسسها، وفي المقدّمة للمجتمع الفرنسي. و نظرا إلى هذا الاختلاف نجد "بيير بورديو" لا يركّز في تحليلاته على أولوية البنية الاقتصادية وتوابعها المادية فقط، و إنّما يركّز بقوة أيضا على البنية الفوقية منها الوازع الاجتماعي والروابط الثقافية باعتبارها بنية النسيج العام للمجتمع الجزائري، ولا يعني هذا بطبيعة الحال أنّ "بورديو" يسقط في الزّعة المثالية، لأنّه لا يستبعد من تحليلاته القوّة التأثيرية للعوامل المادية.

3.2 علي الكنز:¹

¹ Roland wast, Ali el-kenz.(1990). "L'industrie et la recherche". ALFONS. Paris.

— الجزائر ميدان للدراسات السوسولوجية المعمّقة في العقود الأخيرة من ق14 هـ

و تمثّلت دراسته في أطروحة دولة في جامعة باريس سنة 1983، وموضوع هذه الأطروحة يدور حول "العلاقة بين التصنيع والمجتمع"، و ميدانها مصنع الحجّار ، و هو من أضخم المركّبات الصّناعية في الجزائر ، حيث حلّل الباحث أشكال التّصوّرات و الممارسات العلمية ومرجعيتها.

يشير "علي الكنز"، إلى أن مشروع التصنيع هدف إلى تغيير البنى الاجتماعية و كان مصدر التغيير الاجتماعي و الاقتصادي ولا لبس فيه . و في قوله: " في ظل إنتقال التكنولوجيا المستوردة إلى المجتمع المحلي، مروراً بالتنظيم الذي قام به المستحدثون ؛ تعتبر أي مناقشة لمعناه وطرائق عمله تشكيكا في مبادئه (...) ، واعتبار أي فكرة التكيف هي فكرة مخالفة و كل فكرة مخالفة كحل وسط وكل حل وسط كبدائية لإجهاض المشروع". هذا التصلب في تطبيق القواعد التنظيمية سقل من قبل إطارات المصنع نتيجة رغبتهم في عدم إنشاء "مصنعتخلف". هذه القواعد التنظيمية، ستكون تحت تأثير حدود الفضاء الاجتماعي الذي يعمل فيه المصنع.

كما أثار "علي الكنز" مسألة مدى تأثير عدم إتقان التكنولوجيا المستوردة، و هذا بتعلّق بوظيفة الإطارات. فالمركزية في تسيير مصالح العمالة والصعوبة الشديدة لظروف العمل في الورشات، وطبيعة المسؤوليات المسندة إلى الإطارات، كان لها تأثير في تحوّل هذه الأخيرة نحو الوظيفة الإدارية. أي تغيير منصب الكفاءة التقنية بمنصب الكفاءة النظامية (الإدارية)، قصد الحصول على الإمتيازات المادّية الممنوحة للطاقت الإداري وخصوصا لضمان الإستقرار الوظيفي. و يضيف، "أن. الإطارات التنفيذية من معظم الجامعات و الكليات، وجدوا أنفسهم في بيئة مهنية لأوّل مرّة، وعن قرب". بحيث كانت تطغى عليهم العديد من الصعوبات التي يصادفها العمال. وبينما اعتقد هؤلاء التنفيذيون أنهم يمارسون مهنتهم الهندسية بهدوء، فقد اضطروا إلى مواجهة المشاكل الاجتماعية همعن غنى عنها، رغم عدم قدرتهم على حلها.

خلص "علي الكنز" إلى أنّ تطبيق فكرة التصنيع كانت مخالفة لطرحها النظري، مما انجر عنه تضيق المشروع و الإهتمام بالأمر الاجتماعي التي كانت هدف كل الفئات المهنية. فعملية التصنيع التي يمثلها مركّب الحجار لم تأخذ بعين الاعتبار واقع العلاقات الاجتماعية، و ذلك لأنّ عملية التصنيع ظاهرة اجتماعية تتشابك فيها وتتداخل مختلف مستويات البنية الاجتماعية، التي هي تأثير متبادل، لذلك فكل محاولة تريد اختزال التصنيع الى عنصر واحد وهو العنصر التقني المتمثل في المصانع والآلات، وحده قادر على تغيير ديناميكية العلاقات الاجتماعية وفي الاتجاه الايجابي فهي ستجابه وتُقابل بأشكال صريحة أو ضمنية للمقاومة.

4.2 جمال غريد¹

يرى "غريد" أنّ تجربة التصنيع في الجزائر كانت جامعة بينالنظرية و التطبيق، فوقتبييناستيراد الترسنة السوفييتية في التصنيع و زرعها في أنحاء جغرافية متباعدة على المستوى الوطني و تشييد مراكز تكويننظريةتوافقتلك الدولية معتاطير أجنبي ذي كفاءة عالية و مهارات تقنية عالمية.

منمنطلقأطروحتبعنوان: " التصنيع، الطبقة العمالية، علم الاجتماع: الخصوصية الجزئية في 1994"، يفترض "غريد" أن مشروع التصنيع هو تجسيد لمشروع ثقافي حدثي. في محاولة لتكريس النهضة الصناعية منطرف جماعة اجتماعية لإدراك النفوذ أو لتعزيزه وجعلهاغطاً، و في هذا السجال، تحتل المؤسسة الإقتصادية مكانة مركزية في المشاركة في صنع رأس المال المادي للمجتمع الحديث و التركيبية الاجتماعية للفرد الصناعي.

¹Djamel, Guerid. (1994). "l'entreprise industrielle en Algérie : les limites de l'acculturation en algerie". Edition crasc. Oran. p-p 117-131

— الجزائر ميدان للدراسات السوسولوجية المعمّقة في العقود الأخيرة من ق14هـ

حسب "غريد" تُفسّر أسباب هذا الإخفاق على مستويين: المؤسسة والمجتمع، في عدم التحضير لعملية الثقافة، و تتجلى مؤشرات ذلك في :

- 1- غياب الإلتزام والانضباط و روح المسؤولية بين العمال.
- 2- تصاميم المباني والمنشآت نفسها لا تساهم في تنظيم ومراقبة العمال على الرغم من أنّها رمز للحدّثة.
- 3- القرارات التنظيمية تستمدّ شرعيتها من القوانين والإجراءات الداخليّة، لكنها لا تتفهّم الأوضاع الاجتماعيّة للعمال.
- 4- فكرة التصنيع تصاحبها فئة الإطارات المراقبة و هي متخصّصة في المتابعة و رعاية شؤون التصميم و البرامج، إلا أنّها فشلت في التصدي للعديد من الظواهر التنظيمية غير المتنبّئ لها (الغيابات، التأخيرات، طقوس القبليّة في عمليات التوظيف).
- 5- التّهديدات المستمرة بالطرد التي وُجّهت للعمال، عبارة عن إجراءات إدارية تفتقر للمناقشة والتأطير، ما يجعل بروز قوى معاكسة تدافع عن العمال وترهق المسؤولين.
- 6- عملية الثقافة وسط المؤسسات الجزائرية صاحبها دعم لأجهزة إيديولوجية موازية للقرارات التنظيمية ممّا جعلها تشوّش على موضوع الإلتزام والانضباط. و سمّاها "مضاد الثقافة-الثقاف"
- 7- اعتبار المحدثين الصناعيين جماعة منافسة على السلطة، وتشكّل خطرا على نفوذ الجماعة السياسية.
- 8- بدأت الأمور تسوء عندما توقّف التصنيع عن صنع الحراك الأفقي، بل تراجع ولم يستطع جمع شمل السياسيين، و أعيدت هيكلّة المؤسسات لتشتيت نفوذ الصناعيين، و يسترجع السياسيون نفوذهم السياسي و احتكارهم للقرارات الإستراتيجية.

9- اختراق القوى المعارضة لجماعة الصناعيين ودخولها للمؤسسات و التّشويش عن النظام العام وعملية التثاقف. بالأحرى، المنطق السياسي والذي يسيطر و ليس المنطق الإقتصادي.

10- يرى "غريد" أن المؤسسة الإقتصادية لتتجّح في تحدّيها الحضاري لضعف مواردها الثقافية (موارد التثاقف)، ومع مرور الزمن تصبح مجرد جزيرة وسط محيط لا يناسبها. و عملية التثاقف كانت بين المجتمع المحلي و المصنع، أي نقل الصراعات السياسية من خارج المصنع إلى وسط المصنع، وثبت أن الأجهزة الإيديولوجية ساهمت في عملية التثاقف و لكن بعكس التيار الاقتصادي. فهو الآن مجبر معتفاً بالمنافسة والمعارضة الإيديولوجية على الحفاظ على المكاسب وليس مواجهة هذه العداوة.

5.2 أحمد هني¹

يعرض "أحمد هني" في كتابه: (الشّيوخ و ربّ العمل 1993, le cheikh et le patron) الذي يصبّ في محور التثاقف والتصنيع في الجزائر، هو أنّ تجربة الجزائر في التصنيع ليست تجربة الحداثة المادية ولكنها تقتصر على إعادة إنتاج ماهو تقليدي ومألوف في مجتمع محليّ أعتبره الصراعات الإيديولوجية والظروف الاجتماعية. فالفكرة المفصلية بين التصنيع والتثاقف، هي أنّ الأوّل يتطلّب روابط اجتماعية يقودها المصنع أو معدّلات الإنتاج، و الثاني أنّ استقبال الرأس المال المعرفي عن طريق التصنيع يتطلّب تنوع جديد من السلوك الثقافي. غير أنّ المجتمع المحلي أعاد إنتاج نفس الروابط الاجتماعية المتواجدة على مستوى البنى الاجتماعية خارج المؤسسة وأدخلها في الوسط الصناعي، ممّا نجّر عنه فشل التجربة الحداثيّة.

و من أهمّ أفكاره التي تناقش علاقة التصنيع بالتثاقف:

¹Ahmed ,Henni. (1993), le cheikh et le patron. Usages de la modernité dans la reproduction de la tradition. OPU.algerie.

- 1- يعيد الرأسمالي إعادة انتاج مركزه الاجتماعي ليسبتوزيع الثروة بلعن طريق الإستثمار، هذا المبدأ يساعدنا في فهم الفرق بيننظام تسيير الشيخ و ربّ العمل، فالأول يستمدنفوذه الاجتماعي من التّركيبة الاجتماعية التي ينتجها مع زبائنه، والهدف هو الحفاظ على إستقرار المؤسّسة وسيرورتها وليس الفعالية الإنتاجية، و بالتّالي إستقرار الأجور وتوفير الإمدادات الخاضعة بعمليات الصيانة و الإنتاج. أمّا عن علاقته بالعمال فهو يحاول بسط أسلوب الولاء والوفاء حتى لا يجرؤ العمال على تعطيل العمل، ومن ههنا تنبثق طقوس غير رسمية كالمحسوبية والجهوية والرّوابط الأخوية والصدقة القائمة على درجة الثقة المتبادلة في عملية التوظيف، بالإضافة إلى توزيع الإمتيازات المادية بدافع دينيتمتمدّحتى لقرارات الترقية في السّلم الهرمي. الشيء الذي يوسع للشيخ نفوذه الإجماعي، فالفعالية ليست إقتصادية بقدر ما هي اجتماعية، وعليه فقبل أن يصبح ربّ العمل رأسمالي فهو مجرد 'شيخ'. و يستمدّشرعيته و رمزيتبعدمجالسة القبيلة أو العشيرة ممّا يفتح سوقاً كبيرة لرأس المال الرّمزي.
- 2- و تخلق هذه الرمزية درجة من البيروقراطية بالمعنى الفيبيري، فعملية تحويل العمل إلى قيمة مضافة ثمّ إلى رأس مال تتوقّف، لأنّها تابعة لحتمية التوقيع الإداري (الإمضاء) وليس للسوق أو للإنتاج.
- 3- يتسبّبتراكم هذه الرمزية في تراكم الرّأس المال العلائقي، فنحن بحاجة إلى الاسم وليس للكفاءة في وسط المؤسّسة، حتى و إن احتاجتهذه الأخيرة للكفاءة فهي لتسيير المادة وليست لإصدار القرارات الإستراتيجية.
- 4- وتيرة التصنيع كانتمرتبطة بالطّبيعة العشائرية، فأصبحنوعا من الإيديولوجيا. وليس للدّفع بالحراك الإجماعي، فهي تواجه خطرين: ترانبية اجتماعية قدتهدّد نفوذها أو بروز إيديولوجيات أخرى معارضة.
- 5- وفي الرّبطين التصنيع والتقليد، في إشارة إلى الحياة وسط المؤسّسة، أشار إلى أنّ البنية الكولونيوية (اللغة، الهوية، التاريخ) أعادت إنتاج البنية التسلطية

(المركزية، الإدارة، القرارات). بحيث يؤكد أنّ طريقة إنتاج الترابية الاجتماعية وسط المصنع ذات جذور كولونيوية، و عليه فإنّ الممارسات الاجتماعية داخل المؤسسة هي بالضرورة نفس ممارسات التي هي خارج محيطها.

6- إعادة إنتاج الممارسات الاجتماعية المتواجدة في المجتمع داخل المؤسسة، فكرة محورية، تتجلى من خلال كميّة الإنتاج التي لا تيزر تواجد العامل في المؤسسة بقدر ما تبرّرها علاقته مع المسؤول، و أنّ علاقات العمل التي تنشأ في العمل تجسدها المادة. كما يشكّل العنصر المادي علاقة اجتماعية خاصّة، لأنّها محدودة وغير ثابتة.

6.2 سعيد شيخي¹:

على نفس الوقع، باشر "سعيد شيخي" إجراء دراسة بعنوان "مسألة العمالة و العلاقات الاجتماعية في الجزائر، عامل الورشة والبيروقراطية". قدّم فيها عملا تاريخيا و اجتماعيا. ففي البداية، يمضي من خلال دراسة الظروف التاريخية التي تشكّل العمالة. كما يتمّ تحديد الممارسات الاجتماعية السائدة التي رافقها تشكيل مجموعات عمالية، ساهمت في وضع بنية للنظام الاجتماعي. كما طرح تساؤلاً عن معاني العمل في المصانع وسلوكيات واستراتيجيات العمال التي تنفّذها المجموعات الاجتماعية المهيمنة. استجابة لفرضيتين: الأولى المتمثلة في مدى ارتباط معيار النجاح السياسي بحجم الاستثمار وتوسيع القدرات الإنتاجية بدلا من تحسين إنتاجية العمل. و الثانية أنّ مفهوم العمل ليس فكرة مركزية في تسيير الإنتاج و القوى العاملة. فهو يتطلب التدفق المستمر للإمدادات، دون انقطاع أو الهزّات، وتدفق مستمرّ للأجزاء و الأدوات والموادّ الخام والمنتجات نصف المصنعة.

من خلال الدراسة حصل على النتائج التالية التي نجّمها بشكل مختصر: (Chicki Said, 1987)

¹Derras omar et autres. (2012). "la mobilité sociale en Algérie". PRN. Edition crasc. oran.

— الجزائر ميدان للدراسات السوسولوجية المعمّقة في العقود الأخيرة من ق14 هـ

- لميتمكّن كبار المسؤولين التنفيذيين في المصانع الجزائرية من أداء مسؤولياتهم، فقد كانوا أكثر حرصاً بشكل عام على جعل نفوذهم سائداً على التجمعات العمالية بدلا من تحسين إنتاجية العمال، وكانوا أكثر اهتماماً بعلاقاتهم مع الإطارات العليا في التسلسل الهرمي محتبّين لهم الاستفادة المثلّية من الإمتيازات عوض الاهتمام بالقدرات و الإبداعات العمالية التي كانت قد تساهم في إتقان التقنيات المستوردة بأموال كبيرة.
- إهمال الإطارات للوظائف الفنية وقللوا من قيمة العمل المنتج.
- بروز ظواهر تنظيمية أكثر أهمية في نظره، فغياب دليل تصنيف الوظائف يدلّ على إنعدام التطوّر الأفقي في المجالات الفنية والإنتاجية، والتطوّر الوحيد المتاح في الترقية الرأسية هو على مستوى أعلى الهرم التنظيمي.
- يتطلّع المسؤولون التنفيذيون والفنيّون الماهرون إلى مغادرة الورشات و الإلتحاق بالوظائف الإدارية حيث يُكوّنون نفوذاً أكبر، ويكون التقدم المهني أسرع، بالإضافة إلى مرونة و سهولة تراكم الرأس المال العلائقي.
- الكفاءة المطلوبة ليست في ذلك "العامل المثابر الذي لا يعرف الكلل" بل هو العامل المطيع والمثابر في إحترام رؤسائه. كما أنّ ارتفاع معدّلات الغياب والتأخر بشكل رهيب، بحيث إعتبرها "سعيد شيخي" أنها ظاهرة إجتماعية جديدة في الجزائر الحديثة.
- ظهور قوى معارضة وسط المركّب مشكّلة تقلّبات أرهقت الإطارات و تحرّض على التمرد.

الخاتمة

ممّا سبق، و في سياق الإجابة عن تساؤلاتنا التي طرحناها في نص الإشكالية في هذا البحث، تتجلّى بوضوح أهمّية الدّراسات الميدانية في البيئة الاجتماعية الجزائرية من خلال البيئة الاقتصادية، و تلك الإسهامات العلمية في حقل العلوم الاجتماعية، حيث أصبحت المسألة الثقافية تشكل عاملا حاسما في كثير من الظواهر، وإنّ التركيز عليها في عالم

المؤسسات والتنظيمات هو حتمية منحتميات دراستها والاهتمام بها من أجل فهم وتحليل وتفسير البنى الداخلية والخارجية لمختلف الأنساق الاجتماعية التي تشكّل البناء الاجتماعي الجزائري. فهي أطر مبنية اجتماعيليرتهن وجودها بإقرار عناصرها الثقافية التي يتمّ على ضوءها رسم المعالم الجوهرية في بناء المخطّطات و الاستراتيجيات المواكبة لمشروع التنمية من أجل تحقيق أهداف الحداثة في تفجير الإبداع الفكري و الفني و التقني الضروري لتقدّم المجتمع و ازدهاره.

المصادر والمراجع:

- 1- مالك بن نبي، عبد الصبور شاهين. (2000). مشكلة الثقافة، بدون طبعة، دارالفكر، دمشق.
- 2- بيار، بورديو. و جون كلود ، بارسونس. (1970). إعادة الإنتاج في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم. ترجمة ماهر تريمش. الطبعة الأولى. المنظمة العربية للترجمة. بيروت.
- 3- ستيفان، شوفالييه. كريستينان، شوفيري. (2013). معجم بورديو. ترجمة زهرة إبراهيم. الطبعة الأولى. دار الجزائر. الجزائر.
- 4- عبد الله، حمودي. (2010). الشيخ و المريد. النسق الثقافي في السلطة للمجتمعات العربية الحديثة. ترجمة عبد المجيد جحفة. الطبعة الأولى. دار توبقال للنشر. المغرب.
- 5- فتحي، تريكي. عبد الوهاب، المسيري (2012). الحداثة و ما بعد الحداثة. الطبعة الأولى. دار الوعي للنشر و التوزيع. الجزائر.
- 6- Ahmed ,Henni. (1993), le cheikh et le patron. Usages de la modernité dans la reproduction de la tradition. OPU.algerie.
- 7- Amie,maalouf. (2009). le dérèglement du monde. Éditions grasset et Fasquelle. France.
- 8- Taib,afsi. (2011). le développement économique de l'algerie,experience et perspectives. Première Edition. Casbah Edition, Algérie.

— الجزائر ميدان للدراسات السوسولوجية المعمّقة في العقود الأخيرة من ق14هـ

- 9- Bouzidi,abdeldjalil. (1985.)" l'entreprise publique et l'État en Algérie" .
Revue du CNEAP .algerie.pp56-72
- 10- Djamel,Guerid.(1994). "l'entreprise industrielle en Algérie : les limites de
l'acculturation en algerie".Edition crasc. Oran.p-p 117-131
- 11- Derras omar et autres. (2012). "la mobilité sociale en Algérie". PRN.
Edition crasc. oran.
- 12- Roland wast, Ali el-kenz.(1990). "L'industrie et la recherche". ALFONS.